السلمية الوحيد الذي شهد خطوات تطبيقية هو مشروع الاستسلام الساداتي، أي القبول العربي بالتسوية وفق شروط إسرائيل وحدها، وأن هذا النوع من التسويات هو وحده الذي تتحمس له إسرائيل وتدعمه الولايات المتحدة. ولو همست واشنطن في آذان أصدقائها العرب بآلاف الوعود عن تسويات ليست من هذا النوع، فإن السياسة الأميركية لم تقدم في عهود رؤسائها المتعاقبين من الديمقراطيين والجمهوريين برهاناً واحداً مقنعاً على مصداقية هذه الوعود.

ولعل منظمة التحرير، من بين الفرقاء العرب، هي الأكثر خبرة بحقائق السياسة الأميركية إزاء الشرق الأوسط وقضية فلسطين بالذات. ومن أبرز دلائل ذلك أن ياسر عرفات لم يته مرة واحدة على كثرة الهمسات وأنصاف الهمسات التي تلقى على مسمعه منذ عام ١٩٧١، في هذه العاصمة أو تلك بشأن تطورات مرتقبة في الموقف الأميركي. وما فتىء الزعيم الفلسطيني يكرر، في كل الأحوال والظروف، أن الولايات المتحدة هي العدو، وأن سياستها لا تحمل إلى الفلسطينيين إلا ما هو ضار. والذين تاهوا هم الذين لم يصغوا إلى تحذيراته الدؤوبة. وقد ظل عرفات يؤكد ذلك حتى في الأوقات التي يركز فيها على ضرورة الحوار الأميركي ــ الفلسطيني المباشر؛ ذلك أنه في مقدمة من يعرفون الفرق بين استجداء الاعتراف الأميركي بمنظمة التحرير، وبين إرغام الأميركيين بالوسائل الفعالة على الاعتراف بها. وهو، إلى هذا، وأيضاً، في مقدمة الذين يدركون أهمية هذا الاعتراف، ولا يتهيّب، إزاء المزايدات، من وضع الحصول عليه بين الأهداف التي ينبغي النضال للوصول إليها.

ومع أن في الموقف الراهن أموراً تختلف عن الحالات التي أشرنا إليها، فما يزال من الصواب القول بأن الجدل الدائر حالياً إنما يستند، في جانب كبير منه، إلى تصورات واهمة بشأن موقف هذا الطرف أو ذاك من الأطراف الفلسطينية، ومثله الجدل حول أقنية النشاط الذي تتبعه قيادة منظمة التحرير في الوقت الراهن.

إن الاتجاه للبحث عن تسوية لم يعد موضع خلاف جدي بين الأطراف الرئيسية في المنظمة، وليست موضع خلاف، كذلك، ضرورة تشديد كل أشكال الكفاح لتحسين موقف المفاوض الفلسطيني. والمطالب الفلسطينية المقبولة تحددت على نحو غير مختلف عليه هو الآخر، عنوانه العام الدولة الفلسطينية المستقلة على أي جزء يتحرر من أرض فلسطين،، كخطوة تاريخية على طريق الحل الديمقراطي لقضية فلسطين. وهذه المطالب صاغتها ثم بلورتها وطوّرتها قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية، واجتماعات الهيئات القيادية الأخرى، منذ عام ١٩٧٤، حتى اليوم. وإذا كان الرأي العام الفلسطيني قد انقسم في وقت من الأوقات بين تيار سمى نفسه «رافضاً»، وآخر سماه خصومه «قابلاً»، فإن هذا الانقسام التأم منذ تصالح التياران، وحلت «جبهة القوى الفلسطينية الرافضة للحلول الاستسلامية» نفسها بنفسها، وتكرست المصالحة على أساس وثيقة طرابلس لعام ١٩٧٨، ولم يبق بعد ذلك من أصداء الانقسام سوى نغمات خافتة تصدر بين وقت وآخر لسبب أو لآخر. وحتى لو جاز القول بأن دوافع الانقسام السابق ما تزال كامنة، فليس في سلوك أي طرف فلسطيني رئيسي ما يبعث على الخوف من أن جهة ستنحدر إلى الاستسلام، أو أن جهة أخرى سترتد إلى نهج المغامرة.